الوظائف الاجتماعية للمدائح النبوية في العصر المملوكي «دراسة موضوعية فنية»

د٠ خلف مطلق العازمي (*)
د٠ مبارك عادل الميع (*)

تمهيد:

العصر المملوكي: (عصر الدفاع والموسوعات والتصوف والمديح النبويّ):

أسّس المماليك في منتصف القرن السابع الهجريّ الثالث عشر الميلاديّ دولةً مترامية الأطراف شملت مصر وبلاد الشام، وامتدّ حكمهم قرابة ثلاثة قرون، خاضوا خلالها أشرس المعارك دفاعاً عن الإسلام وحققوا إنجازاتٍ يشهد لهم بها التاريخ.

وقدّمت هذه الدولة ثلّةً من القادة والسلاطين العظام الذين أعادوا الهيبة إلى دولة الإسلام في العصر الوسيط، واستطاعوا القضاء على بقايا الصليبيين وأن يخرجوهم نهائيًّا من العالم الإسلامي، كما تصدّت جيوشهم لغزوات المغول الذين اجتاحوا مشرق العالم الإسلاميّ قبل أن تشُتّت جموعهم في عين جالوت، فبرز من هؤلاء السلاطين المظفّر قطز والظاهر بيبرس والناصر قلاوون، وبرزت دولة المماليك دولةً قويّة مرهوبة الجانب؛ خطب ودّها ملوك أوربا وآسيا.

(*) أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية الأساسية، دولة الكويت.
(*) دكتور منتدب في كلية التربية الأساسية– دولة الكويت.

وما أن قام المماليك بنقل الخليفة العبّاسي إلى القاهرة حتى غدت مركز النشاط الدينيّ والعلميّ والأدبيّ الذي ظهر أثره في مصر والشام، ونشط خلال هذا العصر إقامة الاحتفالات الدينيّة التي أشرف عليها السلاطين بأنفسهم، ورافق ذلك ازدهارٌ للدور العلميّة والجوامع، كما لاقت ظاهرة التصوف نشاطاً ورواجاً كبيرين بشكلٍ ميّز هذا العصر، حتى غدا بحقّ عصر التصوّف، وتخرّج في هذا العصر عشرات المؤلفين المبدعين الذين صبّوا عنايتهم على الجمع والتصنيف، فكان أنْ سُمي العصر المملوكيّ: عصرَ الموسوعات.

والحقّ يقال: إنّ من أعظم إنجازات المماليك العلميّة والأدبيّة أنّهم سارعوا إلى جمع كل ما تبقّى من التراث العربي والإسلاميّ الذي تعرّض للنهب والحرق والإتلاف على يد المغول والتتر، فكان لهم فضل كبير بذلك، ومازالت مكتبات العالم تغصّ بمؤلفاتهم وموسوعاتهم منتظرةً الكشف عنها وتحقيقها.

وقد رافق ذلك ازدهارٌ تجاريٌّ إذ كانت فيه دولة المماليك مركزاً للتجارة العالمية بين قارات العالم القديم، مما جعل السلاطين يعيشون في حالةٍ من البذخ والترف الذي تمثّل في مظاهر العمران، ولا سيّما القصور والمساجد الشاهدة على ذلك حتّى اليوم في كلّ من مصر والشام.

■ **المديح النبوي:**

عُرِف فنّ المديح النبويّ في حياة رسول الله ﷺ. وهو جزء من الشعر الديني، الذي انتشر لدى الأمم، فـ «كان الدين وما يزال من المصادر الهامّة التي تمدّ الأدباء بموضوعات أدبهم، وترقق مشاعرهم وأحاسيسهم وتوحي لهم بكثير من إبداعاتهم»[1].

(١) محمد، محمود سالم، المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١/١٤١٧هـ، ص١٢.

«ومن هنا جاءت المدائح النبوية فنّاً أصيلاً من فنون الشعر الدينيّ، له خطره وله مكانته عند المسلمين، فهو متعلّقٌ بصاحب الدين والمثل الإنساني الأعلى، فرسول الله ﷺ شخصيّة إنسانيّة فريدة، هي أعظم شخصيات التاريخ الإنسانيّ، فكان لا بدّ للأدب من أن يعتني بالحديث عنها، وكان لا بدّ للأدب من أن يشيد بها وبفضائلها، ويقدم للناس فيضا من خصائص الإنسان الكامل، ليقتدوا بها، وتصفو نفوسهم بتملّيها، وشخصيّة رسول الله ﷺ استوجبت المدح من المسلمين وغيرهم لعظمتها وسموها»(١).

وكان كعب بن زهير أوّل من مدح الرسول ق في عصره، ثم تبعه في ذلك حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن روّاحة، في صدر الإسلام. ثمّ انتشر مديح الرسول ﷺ فيما بعد، وكان يلاقي استحساناً من قبل الناس وولاة الأمر؛ «فقد عُرف المديح النبويّ منذ بعثة رسول الله هادياً ونذيراً، ونظمه الشعراء من الصحابة وشعراء العصور اللاحقة، لكنّه لم يصبح ظاهرةً متفرّدةً إلا بعد مدّةٍ طويلةٍ من الزمن، ولم يستقرّ ويتكامل إلاّ في العصر المملوكيّ، أو قبيله بقليل؛ إذ أضحت له قواعده وأصوله، وتقاليده المعنويّة والفنيّة»(٢).

اتّسعت المدائح النبويّة في العصر المملوكيّ اتّساعاً كبيراً، وانتشرت بين الأدباء والعلماء، فراحوا يتنافسون في نظمها، ويتبارون في إنشادها في المجالس والمناسبات، وقد كثرت في هذا العصر بشكلٍ مفرط. و «أُولع الشعراء بفنّ المدائح النبوية في الأقطار العربيّة الإسلاميّة جميعها، وانشغلوا به، وقدموه ووضعوه في مقدّمة فنون الشعر»(٣).

---

(١) المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ص١٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٧.

والحقّ أنّ المديح النبوي بلغ من الاتساع في العصر المملوكي شيئاً لم يبلغه في عصرٍ من العصور، كما أنّه رسخ ووُضِعت له القواعد والأصول، «وظهر الشعراء الذين اشتهروا به وأجادوه، فشغلت المدائح النبوية قدراً كبيراً من دواوين الشعراء، ثمّ استقلّت بدواوين خاصة بها»[1]. كما «تميز قدرٌ كبير من المدائح النبوية بطول لم نعهده في الشعر العربيّ، فتجاوز عدد أبيات بعض القصائد المئتين"[2]، وكان من شدّة الاحتفاء بقصائد المديح النبويّ أن كان الشعراء يطلقون عليها أسماءً مختلفة، فكلّ قصيدة في المديح النبويّ تحمل اسماً خاصّا بها، فهذه (البردة)، وتلك (نهج البردة)، وهذه اسمها (تفصيل البردة)، وتلك (أمان الخائف)، وأخرى اسمها (ذخر المعاد على وزن بانت سعاد)، و(الغرر في مدح سيد البشر)، وأخرى اسمها (الفتح المبين)، وثالثة (فتوح الحق)، وهكذا.

■ **أسباب انتشار فن المديح النبوي في العصر المملوكي:**

يُرجع الدكتور محمود محمد سالم الأسباب التي كانت دافعاً لهذا الإفراط في قصائد المديح النبوي إلى أسباب سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة وأسباب أخرى سببها الانسياق وراء التوجّه العام والتقليد[3].

وتتحدد الأسباب السياسيّة في أنّ المماليك وصلوا إلى الحكم في عصر سادت فيه الاضطرابات، وتعرضت البلاد العربية والإسلاميّة إلى خطر الصليبين الآخذ بالتوسع من جديد، كما تزامن ذلك مع بدأ المغول غزواتهم حيث قضوا على الخلافة العباسيّة واحتلوا الشام في طريقهم إلى مصر، كما اتخذت الحملات

(١) المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي ، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

(٣) فيما يأتي تلخيص للأسباب التي أوردها الدكتور سالم، ينظر: محمد، محمود سالم، ص١٩- ص٢٧.

الصليبية طابع التستّر بالدين والعداء الموجّه للإسلام مما أوقد جذوة العاطفة الدينيّة عند المسلمين التي تجلت أدبيًّا من خلال شعر المديح النبويّ الذي أبرز تمسّك الشعب وشعرائه (مثقفوه) أولاً بالإسلام ونبيه ﷺ .

وعلى الصعيد الداخليّ فقد كانت الأوضاع المأساويّة – عموماً – التي خلّفها المماليك نتيجة تسلّطهم واستبدادهم دافعاً إلى استثارة العاطفة الدينيّة والتمسّك بها، والدعوة إلى السير على هدي النبي الكريم ﷺ، وكان الشعراء في مقدّمة الدعاة إلى الإصلاح والرجوع إلى الحقّ من خلال مدائحهم. فقد كان المجتمع المملوكي طبقيّاً، يسوده نظام الإقطاع العسكريّ، وكان الأمراء المماليك يؤلّفون طبقةً متميّزة، بسلطات مُطلَقة، وقد حفل تاريخهم بصور من المظالم، إلى جانب مظاهر العظمة التي أحاطوا أنفسهم بها، فبذخوا بذخاً فاحشاً، وتركوا بقيّة الناس عرضةً للفقر والجوع، وفريسةً للأوبئة والكوارث. وقد شهد العصر المملوكي الكثير من الأزمات الخانقة، وحدثت كوارث طبيعية حصدت الناس حصدا بالإضافة إلى المجاعات المتكررة التي أوصلت الناس إلى أكل لحوم البشر، فكانوا عندما تلمّ بهم مصيبة من هذه المصائب يضجون بالدعاء إلى الله تعالى، ويستشفعون برسوله، ليرفع عنهم هذا الكرب.

كما انتشرت مظاهر الفساد الاجتماعي، وظهور العادات الغريبة عن العرب والإسلام، وقد يكون إقبال الناس على اللهو والمجون من قبيل الهرب من قسوة الحياة، واشتداد الظلم والعسف، إلا أنّ هذه الحياة اللاهية لم ترق لكثيرٍ من الناس، فهاجمها العلماء، وعدوها أحد أسباب المصائب التي تحلّ بالأمة، ويصِف المقريزي حالة المجتمع المصري في إحدى السنوات (٥٩٠هـ) بقوله: «في متجددات سنة تسعين وخمسمئة، وكان قد تتابع في شعبان أهل مصر والقاهرة على إظهار المنكرات، وترك الإنكار لها، وإباحة أهل الأمر والنهي لها وتفاحش

الأمر إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، وأقيم طاحونٌ لطحن الحشيش بالمحموديّة، وأفردت برسمه وحميت بيوت المز، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة (...) وحُملت أواني الخمر على رؤوس الأشهاد، وفي الأسواق من غير مُنكِر وتجاهر الكافّة بكلّ قبيح، فترقّب أهل المعرفة حلول البلاء»[1]. إن هذا غيضٌ من فيض، ولعلّ تفشّي هذه المظاهر في المجتمع المملوكيّ جعل العلماء ومنهم الشعراء، يضجّون بالدعاء إلى الله تعالى، ليخلّص المجتمع من هذه المفاسد، ويتوسّلون برسوله مادحين مستشفعين ليذكّروا الناس بتعاليم الدين وحدوده.

وبالرغم مما سبق، فقد طبعت الروح الدينية مجمل النشاط الأدبيّ والفكريّ في العصر المملوكيّ، وقد ظهر ذلك من خلال التصوّف وشعر المديح النبويّ، وقد شاع ذلك في معظم الأمصار الإسلاميّة في تلك الحقبة، ولعل النزاعات السياسية والغزو الخارجيّ كان سببا حاسماً نتج عنه هذا الطابع، ولا شكّ أنّ الغزو الصليبيّ الذي تستّر بإنقاذ المقدّسات المسيحيّة أفرز بالمقابل عداءً دينيّاً مستحكماً من قبل عامة المسلمين.

■ **الوظائف الاجتماعيّة للمدائح النبويّة:**

١ – الوعظ والإرشاد:

يُعدّ العصر الملوكي أكثر العصور التي مرّت بالوطن العربي فتْكاً، إذ تعرضت ديار المسلمين لأشد الهجمات الغازية ضراوةً، وقد عمّ الفساد أصقاع العالم الإسلامي وساد الجهل وركبت الأمّة قارب الانحدار، وفشت تيّارات الزندقة والإلحاد والابتعاد عن النهج القويم، فرأى كثير من الزّهاد واجبهم في وعظ الأمّة

(١) المقريزي، أحمد بن علي، السلوك في تاريخ الملوك، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب القاهرة، ١٩٧٢م، ج١، ص٢٣. بتصرف

وتذكيرها بضرورة العودة إلى جادّة الصواب، وقد عرف المجتمع المملوكيّ مظاهر اللهو والمجون والمفاسد الاجتماعيّة ولاسيما ما كان يرافق أعياد النصارى، ووصل الأمر إلى حدّ ضمان أمن الخمّارات وأماكن الفسق، لقاء ما كان يُدفع من مال للدولة، وقد تراوحت هذه المظاهر بين مدٍّ وجزر وبحسب ميول السلاطين الذين اختلفت ميولهم بين التدين أو التهتّك. وقد وصل الأمر أحياناً حسب وصف المقريزي، إلى إباحة المعاصي، وصار أهل المعرفة ينتظرون حلول البلاء عليهم، يورد المقريزي: «وقبل عيد الصليب بسبعة أيام، بدت في هذا اليوم من مخايل القوم ما يوجبه سوء الأفعال من المجاهرة بالمنكرات، والإعلان بالفواحش، وقد أُفرط في هذا الأمر، واشترك فيه الآمر والمأمور، ولم ينسلخ شهر رمضان، إلا وقد شهد مالم يشهده رمضان قبله في الإسلام وبدا عقاب الله في الماء الذي كانت المعاصي على ظهره، فإنّ المراكب كان يركب فيها في رمضان الرجال والنساء مختلطين، مكشفات الوجوه، وأيدي الرجال تنال منها ما تنال في الخلوات، والطبول والعيدان مرتفعات الأصوات، واستنابوا في الليل عن الخمر بالماء (...) وعجز المُنكِر عن الإنكار إلا بقلبه»[١].

ولا شك أنّ ما سبق قد أفرز رد فعلٍ قويّ من مجتمع إسلاميّ بالأصل، ولذلك خرجت طائفةٌ من العلماء بالوعظ والنصح والإرشاد، كما عمد الشعراء إلى ذلك فتناولوا هذه القضيّة في مدائحهم، ثمّ فشت في المدائح النبويّة روح النصح والإرشاد، مثلما استنارت بحديث الوعاظ والزّهاد، فكان الشعراء يبثّون الوعظ

(١) المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مكتبة المليجي الكتبي، مطبعة النيل، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ج١٢، ص١١٦. بتصرف

والحكمة في أشعارهم، فينهون عن اللوذ ببهجة الدنيا والاستمتاع بها، ويذكرون بالآخرة والابتعاد عن المعاصي والذنوب، وهذا ما نلاحظه في قول البوصيري[1]:

إلى متى أنت باللذات مشغول ... وأنت عن كلّ ما قدّمت مسؤول
في كلّ يومٍ ترجّي أن تتوب غداً ... وعقد عزمك بالتسويف محلول
فجرّد العزم إن الموت صارمه ... مجرّد بيد الآمال مسلول
وصن مشيبك عن فعلٍ تشان به ... فكلّ ذي صبوةٍ بالشيب معذول

لقد حفلت المدائح النبويّة بالنصح والإرشاد، لتكفّ الظالم عن ظلمه والمسيء عن إساءته، وتحثّه على إقامة شعائر الدين والاقتداء بالرسول الكريم ونهجه، وقد شكل الوعظ في أكثر الأحيان مقدّمة أو استهلالاً لطيفاً للقصيدة المدحيّة، إذ استغنى الشعراء بذلك عن المقدّمة الغزلية أو الطلليّة نحو مقدّمة وعظيّة تناولت التذكير بالموت والنهي عن المعاصي والذنوب، فكانت أكثرَ مناسبةً لقصيدةٍ موضوعها مدح رسول الله ﷺ من تلك المقدّمات المعهودة، كما أنّ هذه المقدّمات الوعظيّة كانت مناسبة لعصر انتشر فيه اللهو والمجون وذاع فيه الفسق وفشا، وهو ما نجده في كثيرٍ من القصائد، ففي القصيدة السابقة استهل البوصيري قصيدته بالنصح والوعظ، وقد فعل ذلك أيضاً في هذه القصيدة المدحيّة، التي يقول فيها[2]:

(١) البوصيري، ديوانه، تح: محمد سيد كيلاني، مكتبة البابي الحلبي، ط ١٩٧٣/٢م. ص٢٢٠.

(٢) البوصيري، ديوانه، ص٨٩.

واف__اك بال__ذنب العظ__يم الم__ذنب خج__لاً يعنّ__ف نف__سه ويوبّ__خُ
ي___ستغفر الله ال___ذنوبَ وقلب___ه ش__رةٌ عل__ى أمثالهـــا يتوثّـــبُ
ض__اقت مذاهب__ه عليـــه فمـــا لـــه إلا إلـــى حـــرمٍ بطيبـــة مهـــربُ

ففي القصيدتين السابقتين يخاطب الشاعر نفسه، لكنّ ذلك لا يمنع أن يكون الخطاب إلى عامّة الناس ولاسيّما أنّ سياق العصر يقتضي مثل هذه المواعظ علّها تطرق آذان سامعٍ فيهتدي، ولعل هذه المواعظ غير المباشرة كانت أجدى وأنفع من مجالس الوعظ التي انتشرت في العصر المملوكيّ؛ رغم أنّ خلقاً كثيرين كانوا يواظبون على حضورها، ولعلّ الشعر في هذه الناحية كان يشارك في الهمّ الاجتماعيّ، ولذلك كان نادراً أن تنتهي قصيدة مدحيّة دون أن يكون فيها شيء من الوعظ والإرشاد، وفي مثل هذا المقام افتتح الصرصري إحدى مدائحه النبويّة بالتحسّر على عمره الذي أهلكه بالمعاصي، وعندما تذكّر يوم الحساب لم يجد من شفيعٍ له إلا رسول الله ﷺ، يقول(١):

قـــم فبـــادر قبـــل رفـــع النعـــوشِ حلبـــة الـــسبق ذا إزارٍ كمـــيشِ

وقد كثر في سياق الوعظ والإرشاد ذكر الموت الذي يبعث في النفوس الخشية والرهبة، وحثها على ترك المعاصي والمبادرة إلى التوبة والاستغفار. والحق أنّ الوعظ لم يكن خاصّا بالمدائح النبويّة إذ كثر الوعظ في ذلك العصر بسبب انتشار اللهو والمجون والانشغال بالدنيا وملذّاتها، فكان ذلك ديدن العلماء والوعّاظ قبلَ وبعد أن يتناوله الشعراء المدّاحون في مدائحهم النبويّة.

(١) الصرصري، يحيى بن يوسف، ديوانه؛ تح: مخيمر صالح، الأردن: جامعة اليرموك ١٩٨٩، ص٧٩.

٢- مجادلة اليهود والنصارى:

من المعروف لدى الدارسين أنّ العصر المملوكيّ كان عصر الإفراط الروحي، بقدر ما كان عصر الفساد، فكان الناس في القرنين السادس والسابع، تغلب عليهم الروح الدينيّة في مجمل نشاطاتهم في الأمصار العربيّة الإسلاميّة، ويبدو أنّ ما شهدته هذه الأمصار من هزّات عنيفة بسبب الغزو الخارجي من جهة، وبسبب النزاع السياسيّ الذي تستّر بالعقيدة بين القوى المتصارعة على السلطة من جهةٍ ثانية، كان وراء التمسّك بالدين والحرص على شعائره، طلباً للراحة والطمأنينة حينا واتخاذه سلاحاً في الصراع الداخلي والخارجي حيناً آخر.

والحقّ أنّ الغزو الصليبيّ للبلدان العربيّة اتّخذ الطابع الدينيّ، وتستّر بإنقاذ المقدّسات المسيحيّة من أيدي المسلمين، مُخفياً وراء ذلك مآربه التوسعيّة والسياسيّة، ولذلك عرف ذلك الغزو بالحروب الصليبية وعُرف الغزاة بالصليبيين الذين هاجموا الدين الإسلاميّ، وحاربوا كلّ دعائمه منكرين نبوّة محمدّ ﷺ، وهذا ما دعا المسلمين إلى الردّ عليهم، ومجادلتهم جدالاً دينياً، فكان لذلك الأثر المبثوث في المعتقدات الدينية، وفي الأدب والفكر.

لقد صادف الغزو الصليبيّ مجتمعاً تغلب عليه الروح الدينيّة، مما دفع هذه الروح السائدة إلى الغليان وهكذا أخذ الشعور الدينيّ ينمو ويشتدّ، وعمل الحكام على تغذية هذا الشعور بتقريب رجال الدين وتشجيعهم، ليتقرّبوا من العامة، فبنوا المساجد والمدارس والزوايا، وأحيوا الاحتفالات الدينيّة بأنفسهم. وظهر أثر هذا الشعور الديني على مجمل نشاطات الحياة في الدولة المملوكيّة، ووصل إلى الأسماء والكنى والألقاب، فكانت مضافة إلى الدين أو منسوبة إليه.

وظهر التوجه الدينيّ في الأدب ظهورا كبيراً وعميقاً، فكان ينشأ في سبيل الدين ويعكس المشاعر الدينية المتأجّجة، ويحمل آثار المناظرات والمجادلات التي كانت تحدث بين فرق المسلمين المختلفة من جهة، وبين المسلمين وأهل الكتاب من جهة أخرى، واشتدت هذه المناظرات خلال الحروب الصليبيّة إذ أخذ المسلمون يدافعون عن دينهم ونبيّهم، ويثبتون له النبوة بدلائل مختلفة، فصنفوا في ذلك الكتب الكثيرة، وقد تناول السيوطيّ كثيراً من هذه الروايات، أيّد بعضها، وردّ بعضها الآخر، ومما أيّده أنّ بعض الأناجيل «لا سيما إنجيل برنابا على بشارات صريحة بالنبي ﷺ»(١). ومن ذلك أيضاً ما جاء في التوراة: «طلع الرب من سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبل فاران، ومعلوم أن بريّة فاران هي الحجاز"(٢).

ومسألة الجدال بين المسلمين وأهل الكتاب قديمة العهد، وتعود إلى بداية العصر العباسيّ حين أخذ العرب المسلمون يترجمون كتب العلوم المختلفة. ثمّ انتقل هذا الجدل العقائديّ إلى الشعر فأضحى انعكاساً حقيقيّاً للجدل الذي طغى على المجتمع في حقبة الحروب الصليبيّة، ولذلك نرى أن البوصيريّ لم يترك نبويّة إلا وضمّنها جداله للنصارى واليهود في عقائدهم وفي دفاعه عن نبوّة محمّد ﷺ، ومن ذلك مطوّلته التي سمّاها (المخرج والمردود على النصارى واليهود)(٣)،

(١) السيوطي، عبد الرحمن، الخصائص الكبرى، تح: محمد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، مطبعة الميداني، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. ص٢٣.
(٢) المصدر السابق: ص٢٦.
(٣) البوصيري، ديوانه، ص١٨٢.

وقد كشف من خلال هذه القصيدة عن سعة اطلاعه بكتب النصارى واليهود، ولاسيّما التوراة والإنجيل، يقول[1]:

تخبركم التوراة أن قد بشّرت قدما بأحمد أم بإسماعيلا
طوبى لموسى حين بشّر باسمه ولسامعٍ من فضله ما قيلا
وجبال فاران الرّواسي إنّها نالت على الدّنيا به التّفضيلا
إن يدعه الإنجيل فارقليطه فلقد دعاه قبل ذلك إيلا
يأتي على اسم الله منه مبارك ما كان موعد بعثه ممطولا

ثم ينتقل ليثبت النبوة بما يعتقده المسلمون ليخلص إلى أنّ جدل أهل الكتاب حول رسول الله ﷺ، وتكذيبهم ليست دوافع دينيّة بقدر ما هي سياسية وأحقاد قديمة، بعد أن دحرهم الإسلام وقضى على دولهم في مصر والشام والأندلس، وكشف القرآن حقيقة انحرافهم وابتعادهم عن الشريعة الحقيقية، يقول[2]:

لم يجهلوه غير أنّ سيوفه أبقت حقودا عندهم وذحولا
ما لي أجادل فيه كلّ أخي عمى كيما أقيم على النّهار دليلا

فالصليبيون كانوا دائمي الانتقاد للإسلام ومهاجمة نبيّه، لذلك ردّ المسلمون على ذلك بالدفاع عن رسول الله ﷺ ومدحه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ تكرّر الأمر عند البوصيري الذي كان يجادل اليهود والنصارى في معظم مدائحه، ولعلّ في ذلك إشارةً واضحة إلى حالة التنافر

(١) البوصيري، ديوانه، ص١٨٢.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

والاستقطاب التي طبعت العصر المملوكي وما خلّفه الصليبيون من إرث، يقول البوصيري في **ذخر المعاد**(١) في هذا الصدد:

فَأَخْسَرُ النّاسِ مَن كانَت عَقِيدَتُهُ ... فِي طَيِّها لِنُشُورِ الخَلْقِ تَعْطِيلُ

وَأُمَّةٌ تَعبُدُ الأَوثَانَ قَدْ نُصِبَت ... لها التَّصاوِيرُ يَوْماً والتَّماثِيلُ

وأُمَّةٌ ذَهَبت لِلعِجلِ عابِدَةً ... فَنالَها مِن عَذابِ اللَّهِ تَعجِيلُ

وأُمَّةٌ زَعَمَتْ أنَّ المَسِيحَ لها ... رَبٌّ غَدا وَهوَ مَصلُوبٌ وَمَقْتُولُ

فَثَلَّثَت واحِداً فَرداً نُوَحِّدُهُ ... وَلِلبَصَائِرِ كالأَبْصَارِ تَخْيِيلُ

تبارَكَ اللَّهُ عَمَّا قالَ جاحِدُهُ ... وجاحِدُ الحَقِّ عِندَ النَّصرِ مَخذُولُ

وَالفَوْزُ فِي أَمَّةٍ ضَوْءُ الوُضوءِ لها ... قَدْ زانَهَا غُرَرٌ منه وَتحْجِيلُ

ومن الواضح في هذا القصيدة، أن البوصيري تناول الأقوام الآخرين مجادلاً حيث بدأ بالوثنيين وعبّاد الأصنام، ثم انتقل إلى اليهود الذي تركوا موسى وربه لعبادة العجل، ثم تناول النصارى الذين آمنو بربوبية المسيح عليه السلام رغم أنهم قالوا فيه إنه صُلب وقتل، مستغرباً من العقول التي تجعل من ربّ يقتل ويصلب إلهاً، كما استغرب من عقيدة التثليث لديهم، ثم انتقل إلى عقيدة المسلمين الفضلى بالتوحيد، وبشر هؤلاء القوم بالخسران والخذلان وجعل من عقيدة التوحيد سبباً لنصر المسلمين في النهاية وحسن ختامهم في النهاية.

٣- مجادلة المذاهب والفرق الإسلاميّة:

وجد قبيل العصر المملوكي خلافتان في العالم الإسلامي، تمثّلت الأولى في الدولة العباسية بطابعها السنّي، أمّا الثانية فكانت الدولة العبيديّة الفاطميّة بطابعها الشيعي الإسماعيليّ، وقد تنافست هاتان الدولتان تنافسا سياسيا وعقائديا، وعلى

(١) البوصيري – ديوانه، ص١٧٦.

الصعيد الاجتماعي فقد ورثت سلطنة المماليك هذا التنافس الذي تبدّى بشكلٍ حاد من خلال مذهب سلاطينها الرسمي الذي تمثّل في المذهب السنّي من جهة، وتراث الشيعة الإسماعيلية الذي خلّفته الدولة الفاطميّة في مصر على وجه الخصوص مركز قوة المماليك من جهة ثانية، وقد وصلت آثار هذا التنافس إلى العصر المملوكي.

ويضاف إلى ذلك أن تيار التصوف اشتد قوة واتساعا، وتعددت فرقه. فكان من نتائج ذلك كلّه ظهور فرق متباينة، وجدال ديني، أعطى نشاطا ملحوظا للحركة الدينية، تجلّت في إقبال الناس على علوم الدين، وكثرة التأليف فيها، وفي الأدب الديني الذي تجسد في الشعر الصوفي وإضفاء الصفة الدينية على الممدوح، وفي المدائح النبوية.

وتناول الجدل الديني أحيانا أحقيّة الاستئثار بالهدي المحمّدي وميراث النبوّة، وقد برز ذلك من خلال شدّة الاحتفاء بمحمّد عليه الصلاة والسلام، وحبّه وإجلاله والتغنّي بشمائله الكريمة، كما ظهر في شعر المدائح النبويّة، وكان ضمن ذلك الجدل الخلاف الناشب بين الشيعة الذين ادعوا ميراث الرسول وهم القائلين بأنّ الأئمة ورثوا رسول الله وخلافته نصّاً وشرعاً لأنّهم آل بيته وأقاربه، فيما ادعى المتصوّفة وراثة الطريقة عن رسول الله وانّهم استمدوا كراماتهم منها، وفي الوقت نفسه كان الخلفاء العباسيون يعتقدون بوراثة رسول الله ﷺ، وكان ذلك أيضاً شأن الفاطميين، بينما كان أهل السنة يعتقدون أنهم ورثة رسول الله لأنّهم اتبعوا سنّته، وأن رسول الله ﷺ لم يُورّث غير حديثه. وكان بين جميع هؤلاء جدالات شتّى

اتّخذت من شعر المديح النبويّ ميداناً لها، ومن ذلك ما أورده ابن الوزير في إحدى مدائحه(١):

العلم ميراث النبي كذا أتى	في النص والعلماء هم ورّاثه
فإذا أردت حقيقةً تدري بها	وراثة وعرفت ما ميراثه
ما ورّث المختار غير حديثه	فينا وذاك متاعه وأثاثه
قلنا الحديث وراثة نبويّة	ولكلّ مُحدِث بدعة إحداثه

فهو يؤكّد أن الرسول لم يورث شيئاً من المتاع والأثاث، وأنّه لم يوصِ بشيء أو لأحدٍ بخلافته، فكل ما تركه ﷺ أحاديثه وسنّته، وكل ما هو خلاف ذلك بدعة وابتداع يتحمّل أصحابها وزرها. وهكذا فقد شهد شعر المديح النبويّ من هذا النوع من الجدل كما شهد جدال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن خلال هذا التباين والاختلاف بين فرق المسلمين استعمل المديح ميدانا لبث الأفكار ومقارعة الأفكار والمعتقدات المخالفة.

ويبدو أن مضامين المدائح النبوية نفسها قد أثار الجدل الحادّ بين الفرق الإسلاميّة المختلفة، وأثارت بعض القضايا ثائرة قوم وهب آخرون للدفاع عنها، ومن ذلك قضيّة جواز التوسل بالرسول ﷺ أو عدمه، فقد ذهب فريق من المسلمين إلى إنكار التوسل والاستغاثة بالرسول ﷺ لأنّ ذلك من اختصاص الله تعالى فهو الشفيع وهو المغيث، فيما ذهب فريقٌ آخر من المسلمين إلى جواز ذلك، وكان لكلّ فريقٍ حججه وبراهينه، ولذلك فقد ظهر أنّ المدائح النبويّة بقدر ما كانت موضع اهتمامٍ ومدارسة وإنشاد واستظهار في المجالس؛ كانت أيضاً مثار جدلٍ بمناسبة مضامينها وأفكارها التي يجيزها البعض فيدافع عنها، ويُنكرها آخرون،

(١) القنّوجي، صدّيق: التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، تحقيق عبد الحكيم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية، بومباي، الهند، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ص٣٨٠.

ومن ذلك التوسّل والروايات الغيبيّة التي تتحدّث عن مكانة الرسول ﷺ كالحقيقة المحمّديّة وعلاقة الرسول ﷺ بغيره من الأنبياء، ومن ذلك ما قاله ابن الزملكاني في معرض ردّه على منكري التوسل بالرسول ﷺ (١):

يا صاحب الجاه عند الله خالقه ... ما ردّ جاهك إلا كلّ أفّاك
أنت الوجيه على رغم العدا أبدا ... أنت الشفيع لفتّاكٍ ونسّاك
يا فرقة الزيغ لا لقيت صالحةً ... ولا سقى الله يوماً قلب مرضاك

فالزملكاني يؤكّد على دعوى جواز التوسّل بالرسول من خلال التأكيد على علوّ مقامه ومنزلته عند الله عز وجل، بل إنّ الرسول ليشفع للمؤمنين جميعاً أخيارهم وأشرارهم لعلو منزلته وسموّ مقامه، أمّا أولئك الذين ينكرون ذلك على النبي فهم فرقة الزيغ ويباشرهم بالدعاء عليهم وألا يشفي الله فيهم مريضاً.

٤- إذكاء الروح العربيّة:

حافظ شعر المدائح النبوّة على كافّة أشكال الانتماء والأصالة في عصر ضاع فيه العرب، وفقدوا القيادة وسط أخلاط الأعاجم، وأصبح المُمسك بانتمائه العربي كالمُمسك بالجمر بعد أن سيطر الأعاجم على زمام الأمور، وتسابق الشعراء إلى مدحهم، والحصول على عطاياهم، وقد انصرف شعراء المدائح النبويّة والتصوف إلى معاني دينهم السمحاء ينهلون منها معانيهم، ونأوا بأنفسهم عن الانجراف وراء تيارات التجديد التي أضعفت التيار الشعريّ العربيّ القديم، فإذا كان الشعراء يتغزلون بالحبيب التركيّ والروميّ والفارسيّ والفرنجيّ وغيرهم، فإنّ شعراء المدائح النبويّة أخذوا على عاتقهم المحافظة على القيمة الفنيّة والمعنوية للقصيدة العربية

(١) الكتبي، ابن شاكر: فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ج٤، ص١٠.

القديمة بكافة مضامينها، فأضحى شعر المدائح النبويّة في هذا العصر ديوان الأصالة، وترجمان الانتماء الصادق، ولهذا فقد كان واضحاً اعتزازهم بعروبتهم في زمن لم يبقَ ما يعبر عنها إلا الدين واللغة. «وكان الشعراء الذين يعتزّون بعروبتهم، يغتنمون كلّ فرصةٍ لإظهار شعورهم هذا، ولو كان ذلك في الغزل بالعربيّات في عصر شهد تمجيد كلّ ما هو تركيّ حتى في الجمال النسائيّ»[١].

وتجلى هذا الأمر في المدائح النبويّة، فأكثر الشعراء العرب ذكر عروبة رسول الله ﷺ وأشادوا بمدحه ﷺ بالعرب، وعرّضوا بغيرهم، لأن الإشادة بالعرب في هذا العصر قد تثير نقمة الأتراك، أو توغر صدورهم، فهي تعبر عن موقف سياسي مناوئ للحكام الغرباء، ولكن إدراجها ضمن المدائح النبوية لا تتيح لمعترض اعتراضا، وتظهر أنها إشادة بأهل الرسول الكريم وقومه، فلا يجرؤ أحد على إنكار ذلك.

ومن ذلك أن بدأ الشمس الدمشقي مدحته للرسول ﷺ بالافتخار بنسبه العربي، يقول[٢]:

عـــرب لـــي أرب فـــي حـــبّهم إنّنـــي أقـــضي وأقـــضي الأربـــا
ســـادة ســـيّدهم لا غـــرو أن جمـــع الـــسّؤدد فهـــو المجتبـــى

فرسول الله ﷺ سيد العرب وفخرهم ومشرّفهم، رفع الله شأنهم ببعثه منهم، فهم يستحقون أن يكونوا سادةً في بلادهم، بعد أن حملوا رسالة الإسلام إلى العالم، وهذا مدح للعرب لا يستطيع أحد ردّه، فتميّز العرب عن غيرهم كان برسول الله ﷺ.

(١) محمد، محمود سالم، المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي، ص٢١.
(٢) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، ٢٤٥/٩.

وعلى هذا المنوال دأب الشعراء في العصر المملوكيّ على مديح العرب من باب مديح الرسول ﷺ، فنثر الشعراء إشاراتٍ مختلفة تشيد بالعرب في عصر سيادة الترك وغيرهم، ومن ذلك قول البرعي(١):

يا سيّد العرب العرباء معذرة لنادم القلب لا يغني تندّمه

فرسول الله هو سيد العرب، وهذا تنويه بقدرهم، وفي قصيدة أخرى يقول(٢):

يليق الخطاب اليعربيّ بأهله شرف فيهدي الوفا للنّقص والحسن للقبحِ
الأعراب أنّ محمّدا أتى عربيّ الأصل من عرب فصحِ

والشاعر يفخر بمحمّد ﷺ وما ينتسب إليه من عروبة اللسان والنسب.

ويضاف إلى هذا الفخر بالنسب العربيّ واللغة العربيّة علامات أخرى، كتغزّلهم بالجمال العربي، وحياة العرب وديارهم، فالصرصريّ يغتنم فرصة ذكر تشوقه للمقدّسات في تضاعيف مدحته، ليشيد بالعرب قائلاً(٣):

عن أيمن السّفح بالحمى عرب بين فؤادي وبينهم نسب
أعزّة سادة لهم همم تقصّر عنها الرّماح والقضب
زيّنت سماء العلا بهم فهم شموسها والبدور والشّهب
إن حار ركب فهم أدلّته أو جار جدب فرفدهم سحب

من هنا كان للعرب الحقّ بالافتخار لارتباطهم برسول الله ﷺ، فهم حملة رسالة السماء الساميّة، وهم الذين أقاموا دولة الإسلام، ومن الواجب أن يكون لهم شأن

(١) البرعي، عبد الرحيم بن أحمد اليمني، شرح حافظ المسعودي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٠م، ص٧٢.
(٢) المصدر السابق، ص١٣٦.
(٣) الصرصري، ديوانه، ص٦٧.

في بلادهم، ولذلك حفلت المدائح النبويّة بالإشادة بالعرب، والتنويه بقدرهم في دولة المماليك. ووجود الإشادة بالعرب في المدائح النبوية يمنع الاعتراض عليهم، ويعصم الشعراء من البطش، فالمماليك الذين حكموا الناس باسم الدين، وحرصوا على إظهار تدينهم، لا يمكنهم أن يأخذوا شاعرا يمدح رسول الله ﷺ بالثناء على قومه.

لقد كان ذلك حلاً إبداعياً عزز تمسّكهم بهويّتهم الضائعة، وهو فخر ما بعده فخر، فمديحهم للرسول ﷺ يذكّر أنّ العرب هم قادة الأمّة الإسلاميّة، وأنّ الصحابة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى العالم منهم، وأنهم من أمّة عزيزة عريقة، عليهم أن يعيدوا أمجادها، وليدرك المماليك أنهم أتباع نبي عربيّ، يحق لأهله الكرامة، والعزّة والرفعة.

٥- إبراز القدوة:

عمل شعراء المدائح النبويّة على رسم صورة متكاملة الجوانب عن شخصية الرسول محمدّ ﷺ، وكان الهدف من ذلك إبراز القدوة والمثل الذي يجب أن يحتذيه أبناء الأمّة في حياتهم ومعاشهم، ومع أنّ الصورة التي قُدّمت كانت نموذجاً للإنسان الكامل، فإن أقصى المراد كان البعث على الإعجاب بشخصه الكريم ومحاولة اتباعه وتقليده في سننه وتعاملاته، وإنّ المؤمّل في ذلك خلقُ مجتمع إسلامي يتعاضد أبناؤه ويتماسكون بهدي النبيّ وبسيرته العطرة، فيسود المجتمع الودُّ الرحمة. وقد كان الواقع الاجتماعي المُعاش في العصر المملوكي بالغ القسوة والصعوبة، فكانت الدولة المملوكيّة دولةً إقطاعيّةً بنظامها العامّ يتسلّط الأمراء فيها والمتنفّذون على السلطة والمال، وتُترك بقيّة الشعب تعاني العوز والحرمان لتفتتك بها الآفات الاجتماعية والصحيّة والكوارث، ولذلك كان لا بدّ من التذكير بأنّ محمّداً ﷺ كان من أعظم الناس وأكرمهم خُلقاً، وأنّه كان رحيماً متواضعاً، بعيداً

عن حب المال والإثراء والتسلّط، ولو أنّه أراد ذلك لكان له ما أراد؛ وقد ردّد الشعراء المدّاحون هذه الصفة عن الرسول ﷺ وتناولوا زهده في الدنيا وابتعاده عن الحياة وبهرجتها، ليتّعظ المتهالكون على المال، الذين يبطشون بالناس من أجل الحصول عليه والإكثار منه، فلو كان من فضلٍ للمالِ والجاهِ لخصّ به الله نبيّه، ولكنّه اصطفاه واجتباه لنبوّته. ولقد كانت سيرة المصطفى عليه السلام مضرب المثل في مناحي الحياة كلّها، وكانت تقاس أعمال الناس على ميزان عمله ﷺ، وبذلك سعى شعراء المديح النبويّ إلى توجيه الناس إلى الأخلاق المحمودة بالحكم والمواعظ واتباع هدي النبوة وسننها، ومن ذلك ما قاله الشهاب محمود في إحدى مدائحه[1]:

ليس موت الفتى إذا صح منه الـ لـيس قـصد دون الـذي يحـاول عـارا
شـــيء يكفـــي فـــإن تقنـــع النفـــ ـــس تجـد قـلّ مـا تـرى إكثـارا

لقد أراد شعراء المدح النبوي أن يعلموا الأخلاق الحميدة، فعرضوا أخلاق رسول الله في قصائدهم، ليعرفها الناس ويستذكروها ويتخلّقوا بها، وانتقدوا أخلاق عصرهم السيئة، ولا شكّ أنّ انشغال الناس الكبير بالمدائح جعلهم يفتتنون بأخلاقه ﷺ مما جعلهم يتأثرون بجانب منها، بوعي أو دون وعي. وكذلك عرض شعراء المديح النبوي عقائدهم، حتى تنتشر بين الناس، وأوضحوا مذاهبهم ليتعلمها الناس ويأخذوا بها، وكل واحد منهم يريد لمذهبه الانتشار والانتصار.

٦- التوسُّل:

من مميزات العصر المملوكي أن شاع فيه التوسّل والتبرّك بالأولياء والصالحين ومقاماتهم، ولا سيّما أضرحة آل البيت التي انتشرت في بقاع العالم الإسلامي، بيد

(١) الشهاب، محمود، ديوانه؛ أهنى المنائح في أسمى المدائح، القاهرة: مطبعة جريدة الشورى ١٣٨٢هـ، ص٩٦.

أنّ أهمّ ما في هذه الظاهرة تجلى شعراً في المدائح النبويّة التي اعتنت خاصّة بالتوسّل ومناجاة الرسول ﷺ والتبرك به وبمديحه، ولا سيّما أن كثيراً من شعراء المديح النبوي جعلوا من مدائحهم للرسول ﷺ شفيعاً لهم يوم القيامة، فالرسول محمد ﷺ هو الذي يُستنجَد به أمام الكروب التي طبعت العصر المملوكي، كما شاعت رؤية الرسول ﷺ في المنام، وانشغل المفسرون والفقهاء بهذه الرؤيا والعمل على تحقيق هذه الرؤيا، ويبدو أنّ التعلّق بالرسول ﷺ والتوجه إليه والتوسل به كان شديداً في هذا العصر، ولعلّ الأمر يعود إلى اشتداد المحن والكروب والأزمات التي عصفت بالمجتمع في ذلك العصر، وفي مثل هذا يذكر ابن رشيق في العمدة، أنّه عند وقوع الطاعون كثر الزعم برؤية النبي ﷺ(١).

فلا مناص إذن من التوسّل بالرسول لأنّه عون النوائب وكاشف الكروب، ولذلك جاءت المدائح النبوية لتعبّر عن روح العصر، يقول أحمد بن عبد الرحمن الدهلوي(٢):

إذا ما أتتني أزمةٌ مدلهمةٌ ... تحيط بنفسي من جميع جوانبي

تطلّبت هل من ناصرٍ أو مساعد ... ألوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلا الحبيب محمّدا ... رسول إله الخلق جمّ المناقب

والواضح أن هذا الاعتقاد بجدوى الشفاعة بالرسول ﷺ قد قاد إلى الاعتقاد بجدوى التوسل والاستشفاع بالمدائح النبويّة، الأمر الذي حوّلها مع مرور الوقت إلى نصوص دينيّة، تجلب المنافع وتدفع الضرّ، ثمّ غدا إنشادها ضرباً من التعبّد والطاعة والتقرب إلى الله، فكثر شرّاح المدائح ومعارضوها ومفسّروها، تقول عائشة

---

(١) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥/١٩٨١، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) الباعونية، عائشة، شرح الفتح المبين، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢١.

الباعونيّة عن المدائح النبويّة: «المدح النبويّ شعار أهل الصلاح، وسيما أهل الفلاح، وهو مما يتنافس فيه المتنافسون، ويدأب في المخلصون، إذ هو من أعظم وسائل النجاح، وسبب لمضاعفة الأرباح»[١].

فلقد أضحى الاعتقاد ببركة المديح النبوي شائعاً في ذلك العصر فهي تشفي من الأمراض وتفرّج الكروب، وكان لقصّة نظم البردة أثر كبير في مثل هذه الروايات، إذ روى البوصيري أن المرض أقعده، ولم يفلح معه دواء، فمدح الرسول ﷺ بقصيدته المشهورة فرأى الرسول ﷺ في المنام وخلع عليه بردته، فإذا بالبوصيريّ ينهض في الصباح سليماً معافى[٢]. ولهذا فقد نال شعر المديح النبويّ أهميّة كبيرة في مجتمع العصر المملوكي، ولا سيّما قصيدة البردة التي ازداد الاهتمام بها مع الزمن وأخذ الاعتقاد ببركتها يزداد ويشتد، فاحتفل بها المتصوّفة أيّما احتفال، بل وضعوا لقراءتها شروطاً لم يوضع مثلها لقراءة القرآن، منها التوضؤ، واستقبال القبلة، والدقّة في تصحيح ألفاظها وإعرابها، وأن يكون القارئ عالماً بمعانيها[٣]. وأخيراً فقد غدا التوسّل بالنبي نمطاً اجتماعيا سابغا وأضحى التبرّك بالمديح النبويّ طقساً تؤدي المواظبة عليه إلى شفاء الأمراض ودفع الضرر وإجلاء الكروب، يقول ابن عربشاه[٤]:

ولقد شكوت إلى طبيبي علّتي ... مما اقترفت من الذنوب الجانية
وصف الطبيب شراب مدح المصطفى ... فهو الشفا فاشرب هنيئاً وعافية

**

(١) الباعونية، عائشة، شرح الفتح المبين، ص٢٣.
(٢) الكتبي، ابن شاكر، فوات الوفيات، ج٣، ص٣٦٨.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٣٩١.
(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٨٧.

الخاتمة

لا شكّ أنّ وراء انتشار شعر المديح النبويّ ما وراءه من أسباب ذكرها الباحثون وأخرى غيرها، لكن تطوّر فنّ المديح النبويّ مع الوقت حقّق له كينونة خاصّة وخصائص تجلت في جملة من القوانين والضوابط والمعهودات، بيد أنّ ذلك ترافق مع تأدية جملة من الوظائف الفكريّة والاجتماعيّة والعقائديّة والسياسيّة ميّزت عهود العصر المملوكي والمجتمع العربي الإسلامي الذي عاش بكنفه وتحت لواء سلاطينه، ولا شكّ أن شعر المديح النبويّ أدّى تلك الوظائف سواء أكان ذلك بعفويّة الشعراء أم بقصدٍ منهم، وقد تناول البحث مجموعةً من الوظائف الاجتماعيّة تحدّدت بالوعظ والإرشاد، ومجادلة اليهود والنصارى، ومجادلة الفرق الإسلاميّة، وإذكاء الروح العربيّة، والتوسّل، وبعث القدوة.

ففي وظيفة الوعظ والإرشاد وجدنا أن هذه الوظيفة متأصّلة في شعر الزهد من قبل، وقد استثمرها شعراء المديح النبوي لاحقاً، ثمّ تكرّست في العصر المملوكيّ لدى شعراء المديح النبويّ وأضحت لازمةً للقصائد بعد أن تفشّت تيّارات اللهو والمجون في المجتمع، واجتمعت فيه مفاسد الأخلاق، فكان لا بد للعلماء ومعهم الشعراء من العمل وتقديم الحلول لنجدة الأمة، وقد كثر في سياق الوعظ والإرشاد ذكر الموت الذي يبعث في النفوس الخشية والرهبة، وحثها على ترك المعاصي والمبادرة إلى التوبة والاستغفار.

والوظيفة الاجتماعية الثانية فقد وجدناها في تخصيص أجزاء من المدائح النبويّة لمجادلة اليهود والنصارى، حيث شاع في العصر المملوكي الانتقاص من الإسلام ذلك أنّ الصليبين حوّلوا مطامعهم ومخططاتهم الاستعماريّة إلى حرب دينيّة كان ظاهرها استعادة الأماكن المقدّسة فيما كانت حقيقتها عملاً عدوانيّاً توسعيّاً، فكان لا بد للشعراء المدّاحين من الدفاع عن العقيدة الإسلامية ونبيها محمد ﷺ ومجادلة النصارى وغيرهم في اعتقاداتهم ودحضها.

أما الوظيفة الثالثة فقد تجلّت في مجادلة الفرق والمذاهب الإسلاميّة المختلفة لا سيّما أن العصر المملوكيّ شهد صراعاً داخليّاً طويل الأمد بين السنّة والشيعة والمتصوّفة، وقد التمس كلّ فريق أحقيّته بميراث النبوة وأكّدها بما لديه من أدلّة، فيما انشغل شعراء المديح النبوي بمجادلة مخالفيهم من الفرق وإثبات أن الإرث النبويّ لم يكن على الحقيقة إلا حديثه وسنّته.

أما الوظيفة الرابعة فكانت إذكاء الروح العربيّة حيث عاش الشعراء المداحون في العصر المملوكيّ وأغلبهم من العرب حياةً طُمست فيها معالم الشخصيّة العربيّة التي لم يبقَ منها إلا اللغة والدين، فأراد شعراء المدائح النبويّة إعادة الاعتبار للروح والشخصيّة العربية من خلال المدائح النبويّة، فكان الفخر بعروبة محمّد ﷺ والاعتزاز بانتمائه العربي مدخلاً للفخر بالعرب ومكايدة كلّ من كان يحاول الحطّ من قدرهم.

وتجلت الوظيفة الخامسة من خلال رغبة الشعراء في إبراز القدوة، وضرورة التمثّل والاقتداء بها، وكانت لديهم شخصيّة الإنسان الماجد الكامل المتمثّلة في شخصيّة محمّد عليه الصلاة والسلام، وهي الشخصيّة الفذّة بسلوكها وتعاملها رحمة وعطفاً وتواضعاً وخُلقاً، والتي يجب على أبناء الأمة جميعاً الاستنارة بهديها والاقتداء بها.

أما الوظيفة السادسة فقد تجلت في التوسّل الذي كان إحدى مميزات العصر المملوكي، والذي أخذ جانباً اعتقاديّا، والحق أن التوسّل لم يختص بالرسول ﷺ بل تجاوز ذلك إلى التبرك بقصائد المدح التي راجت بين الناس حيث اشترط لاستظهارها شروط خاصة. كما أن التوسّل تجاوز الرسول للتبرك بالأولياء ومقاماتهم والتوسل بهم وبكراماتهم، مما شكّل نوعاً من الجدل استشرى في العصر المملوكي بين مجيزٍ ومنكر.

المصادر والمراجع

- الباعونية، عائشة، شرح الفتح المبين، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٩٨٧م.
- البرعي، عبد الرحيم بن أحمد اليمني، شرح حافظ المسعودي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٠ م.
- البوصيري ديوانه، تح: محمد سيد كيلاني، مكتبة البابي الحلبي، ط٢/ ١٩٧٣م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- السيوطي، عبد الرحمن، الخصائص الكبرى، تح: محمد خليل هراس، دار الكتب الحديثة، مطبعة الميداني، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- الشهاب، محمود، ديوانه؛ أهنى المنائح في أسمى المدائح، القاهرة: مطبعة جريدة الشورى ١٣٨٢هـ.
- الصرصري، يحيى بن يوسف، ديوانه؛ تح: مخيمر صالح، الأردن: جامعة اليرموك ١٩٨٩.
- القنّوجي، محمّد صدّيق: التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، تحقيق عبد الحكيم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية، بومباي، الهند، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ط٥/١٩٨١.
- الكتبي، ابن شاكر: فوات الوفيات، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.١٩٧٣.

- المقريزي، أحمد بن علي، السلوك في تاريخ الملوك، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب القاهرة، ١٩٧٢.

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مكتبة المليجي الكتبي، مطبعة النيل، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ج١٢ ص١١٦.

- محمد، محمود سالم، المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ط١/١٤١٧هـ.

* * *